

المناهج المعاصرة في تفسير القرآن الكريم وتأويله

الأستاذ عبد الرحمن الحاج إبراهيم
كاتب وباحث من سوريا الشقيقة



"المعاصرة" والمرحلة المذكورة من قبل بـ "الحديث" على سبيل الاصطلاح. وهكذا فما سوف نقدمه هنا هو ما يتصل بالحقبة المعاصرة التي تبدأ منذ منتصف ستينيات القرن الماضي، وما تزال حتى اليوم.

**توصلنا الدراسة الاستقرائية
لهذه الاتجاهات إلى التصنيف
الآتي:**

- مناهج إسلامية أصيلة.
- مناهج غربية.
- مناهج مختلطة.

أعترف مقدماً أن دراسات مهمة عن المدارس الحديثة في التفسير قدمت، ولكنها غالباً ما تتوقف عند الحقبة الممتدة ما بين مدرسة محمد عبده وتفسيره "المنار" إلى سيد قطب وتفسيره "في ظلال القرآن"، وتبقى الحقبة ما بعد سيد قطب حتى اليوم مهملة، هذا بالرغم من أن هذه الفترة شهدت تطورات شديدة الأهمية في تفسير القرآن الكريم ومناهجه، وهي مرحلة جديدة بكل معنى الكلمة -كما سيتضح لنا فيما بعد- وهو ما يسمح لنا بوسم المرحلة الجديدة بـ

الماركسية، ما أخذت شوكتها حتى منتصف الخمسينيات، وقد وضح أن التفسير الموضوعي يمتلك قدرة بالغة في المحاججة والدفاع عن الإسلام والعقيدة الإسلامية، وبالرغم من أن التفسير الموضوعي بدأ مبكراً في تاريخ الإسلام عندما كتب الجاحظ عن النار في القرآن الكريم، ثم كتب ابن تيمية رحمه الله رسالة عن لفظة "السنة" في القرآن الكريم، وعندما نضج علم الوجوه والأشباه، أو الأشباه والنظائر في القرآن الكريم الذي يدرس مفردات القرآن الكريم في كل وجوه استعمالها في إطار القرآن نفسه... بالرغم من كل تلك الجهود، إلا أن المنهج ما كان واضحاً إلى درجة يمكن فيها التنظير العلمي له، ولهذا لا نجد من بين كل الذين كتبوا في التفسير من قعد لهذا المنهج، وحتى في بداية القرن الماضي عندما كتب الشيخ محمد عبده تفسير جزء عم، ثم تفسير المنار استخدم تقنيات التفسير الموضوعي، من دون

ونشير هنا إلى أن السمة التي تميز هذه المرحلة (المعاصرة) هي ظهور مناهج وافدة لأول مرة في تاريخ الإسلام لتفسير كتابه الأشرف القرآن الكريم، وهي بقدر ما تبدو ظاهرة غريبة، تبدو أيضاً خطيرة. ووجود هذا النوع الجديد من المناهج هو الذي فرض علينا التصنيف المذكور.

أولاً: المناهج الإسلامية الأصيلة:

يصعب على أي دارس أن يجد منهجاً جديداً وبارزاً غير التفسير الموضوعي في هذه الفترة، الذي استحوذ على اهتمام لا مثيل له من قبل، بحيث إن التفسير المعهود الذي يبدأ من سورة الفاتحة ويسير خطياً إلى سورة الناس خاتمة القرآن الكريم، قلّ الاهتمام به، وأصبح الباحثون في علم التفسير مهتمين بشكل كامل تقريباً بالتفسير الموضوعي.

إن في التفسير الموضوعي ذاته ما يبرر هذا الاهتمام الكبير به، ذلك أن الفلسفات الغربية، وخصوصاً

وحدة "الأفكار" و"الموضوعات":

التي يتناولها النص القرآني، فما يقدمه مثلاً عن المال في أول القرآن الكريم، له علاقة مع ما يذكره عن المال في آخره، ويتكامل معه، ذلك لأن المصدر الذي صدر عنه النص القرآني يفترض منطقيته وانسجامه مع بعضه، وهو معنى الآية الكريمة: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ النساء: ٨٢. أو وحدة الموضوع الذي يطرحه القرآن في السورة، التي تشكل برمتها موضوعاً واحداً.

وحدة القرآن الكريم بناءً

وموضوعاً: بحيث يصبح كالكلمة الواحدة في موضوعاته ومفرداته وألفاظه. ويستبدل أحياناً بالوحدة الموضوعية هنا الوحدة العضوية حسب مصطلح الدكتور محمد عبد الله دراز، أو الوحدة البنائية حسب اصطلاح الدكتور طه جابر العلواني.

وبناءً على تحديد مفهوم "الوحدة الموضوعية" وجد هناك ثلاثة تعريفات للتفسير الموضوعي، تجعلنا نقول

أن ينظر بشكل علمي لهذا المنهج.

ونستطيع أن نؤرخ -باطمئنان- لبداية البلورة العلمية لهذا المنهج باكتشاف الشيخ محمود محمد حجازي -بعد كتابته "التفسير الواضح" - "الوحدة الموضوعية في القرآن" والتي كانت موضوع أطروحته للدكتوراه في الأزهر سنة 1967م، ومنذ ذلك الحين -وقد بدأ الاهتمام يزداد بهذا النوع من التفسير بسبب ما ذكرناه آنفاً- أصبح العمل متجهاً إلى بلورة هذا المنهج بشكل نظري.

منذ ذلك الحين أيضاً أخذت الدراسات تتكاثر تبعاً، وقدمت أطروحات جامعية عالية في هذا الموضوع في العراق والمغرب ومصر، والأردن، وما تزال إلى اليوم تتقدم في صياغة منهج التفسير الموضوعي وتطوره.

يقوم مبدأ التفسير الموضوعي على مفهوم "الوحدة الموضوعية" للقرآن وهو مفهوم بدا أن له معنيين هما:

إمكانية أن يكون في تلك المفردات ما هو اصطلاح قد يغير جذرياً التفاسير المعهودة.

2- السورة: قصر بعضهم التفسير الموضوعي على دراسة السورة القرآنية باعتبارها تتضمن موضوعاً واحداً تدور كل مقاطع السورة في المحصلة حوله، ولذلك عادة ما يقوم الباحثون والمفسرون بتحديد الموضوع في بداية التفسير، وهو أمر يشبه -إلى حد بعيد- طريقة سيد قطب في ظلاله، ويجري تحديد مدلول باقي السورة بناء على هذا التحديد المسبق، الذي يقام عادة بالاستقراء.

وتعتبر أهم دراسة -حتى الآن- هي دراسة الدكتور محمود البستاني "عمارة السورة القرآنية" التي طبعت مؤخراً، وأهمية هذه الدراسة أنها تبحث عن قوانين تحدد الأساس الموضوعي الذي يقوم عليه بناء السورة القرآنية من خلال القرآن الكريم كله.

3- الموضوعات: هذا النوع

بوجود ثلاثة اتجاهات في التفسير الموضوعي أو فنقل ثلاثة أنواع هي:

1- المفردة القرآنية: وهو دراسة

لدلالة المصطلحات والمفردات القرآنية داخل القرآن الكريم وفي حدوده فحسب، وبالرغم من أن هذا النوع من التفسير لكلمات القرآن يعتمد مبدأ "الوحدة العضوية" أو "البنائية" للقرآن الكريم فإن بعض الباحثين لا يعتبره من التفسير الموضوعي، ذلك أنه لا يعطي صورة كاملة عن موضوع ما أو سورة ما، ولكن تفسير مفردات القرآن وتحديد دلالة مصطلحاته هو في الواقع تحديد للمفاهيم.

ويجدر التنبيه هنا إلى أن هذا النوع من التفسير يجد جذوره في علم الأشباه والنظائر أو الوجوه والنظائر المعروف في علوم القرآن الكريم، وقد بدأ الاهتمام به في وقت متأخر، ذلك أنهم اكتشفوا أن المشكلة الأساسية في أي تفسير تكمن في التعامل مع القرآن مجرد تعامل لغوي دون الانتباه إلى

يمزج الأنواع الثلاثة ويؤسس للعلاقة بينها وطريقة عملها والأدوات العلمية اللازمة لكل منها.

يبقى أن أهم ما في التفسير الموضوعي هو اعتماده على الدراسة الداخلية للقرآن، أي الاعتماد على مبدأ تفسير القرآن بالقرآن، والاكتفاء به، وهو ما يوقعه في إشكالية غاية في الخطورة، وهو تحوله إلى تفسير مع وقف التنفيذ، ذلك أن هناك مصدراً آخر هو السنة النبوية الشريفة غير مأخوذة بالحسبان. وإذا كنا لا نرى دمجها مباشرة بالدراسة الموضوعية للقرآن التي أثبتت جدواها وأهميتها باعتمادها على القراءة الداخلية للقرآن، فإننا ننبه هنا إلى ضرورة اعتمادها كخطوة ثانية في التفسير الموضوعي، بحيث يتم الموازنة بين نتائج التفسير الموضوعي ونصوص السنة الشريفة بوصفها مبينة للقرآن وتابعة له في وقت واحد.

وإذا فرقنا بين مصطلح "التفسير الموضوعي" كعبارة محدّدة الدلالة

هو الأكثر شهرة، والأكثر تبادراً إلى الذهن عند إطلاق تعبير "التفسير الموضوعي"، ويتوقف هذا التفسير على تحديد "الموضوع" الذي يجب أن يُدرس، والمشكلة الأساسية أن هذا النوع من التفسير لا يمكن أن يشكل تفسيراً كاملاً للقرآن، شأنه شأن دراسة المفردة القرآنية التي ذكرناها آنفاً، ذلك أن الموضوعات التي تناولها القرآن يصعب حصرها، فتحديدها بطبيعة الحال اجتهاد، والاجتهاد يُختلف فيه -ضرورة- من حيث كونه ظني الدلالة. هذا خلافاً للتفسير الموضوعي الذي يعتمد السور.

هذه الأنواع الثلاثة للتفسير الموضوعي يبدو أنه لا يزال هناك اختلاف حولها، وما يزال كل نوع منها يُعتمد مستقلاً عن الآخر، بحيث يعسر علينا العثور على تفسير واحد يجمع الأنواع الثلاثة مجتمعة، وهو ما نراه الآن ضرورياً لمناهج التفسير، وبالتالي فثمة حاجة الآن لإنشاء منهج

قراءته، ونؤكد ابتداءً أن استخدام مناهج غربية بشكل كامل يعتبر ظاهرة جديدة كلياً، بالرغم من صلتها المتواضعة بالبحث الاستشراقي الفيلولوجي (الفيلولوجيا علم يدرس النصوص من خلال مقارنتها ببعض، ويعنى بشكل خاص بالنصوص التاريخية، ويهتم بشكل كبير بالتطور الدلالي للكلمات مقارنةً بين اللغات).

ثانياً: المناهج الغربية: لم يدرس بعد تاريخ هذه الظاهرة، ظاهرة اعتماد المناهج الغربية في دراسة القرآن الكريم وتأويله، فيما عرف بعد ذلك بـ "القراءة المعاصرة". وقد كان لكاتب هذه السطور جهد علمي للتأريخ لهذه الظاهرة الخطيرة، منذ عام 1999م في بحث له بعنوان "ظاهرة القراءة المعاصرة: أيديولوجيا الحداثة" [مجلة الملتقى، العدد 1 - بيروت، الملتقى الفكري للإبداع] ثم في أبحاثه الأكاديمية اللاحقة.

وقد انتهيت إلى أن هذه الظاهرة

على النحو السابق، وبين المفهوم العام للتفسير الموضوعي فإننا نقول: إن مفهوم التفسير الموضوعي يدلنا على الأصول التاريخية لهذا المنهج الذي كان في أذهان بعض المفسرين رغم عدم وضوحه، فيما نقول: إن مصطلح التفسير الموضوعي يشير إلى المحاولات النظرية التي تجعل لهذا المنهج قواعد علمية وأدوات وطرق بحث، حيث نجد أنفسنا بكل تأكيد أمام التاريخ المعاصر للعلوم الإسلامية لا الحديث أو القديم على النحو الذي بيّنته في المقدمة.

يبقى أن المنهج الوحيد الذي يمكننا وصمه بالأصالة الإسلامية في الفترة المعاصرة هو فقط التفسير الموضوعي، أما المناهج الأخرى فهي إما مختلطة مثل "التفسير البياني" أو الأدبي، وإما غربية مثل مناهج "القراءات المعاصرة".

وستوقف هنا عند "المناهج الغربية" التي استخدمت لتأويل القرآن وإعادة

وضعية، وهو بذلك ليس علماً حياً، مما يجعل استعماله محفوفاً بالمخاطر خصوصاً إذا كان موضوع تطبيقه هو القرآن الكريم.

في كل الأحوال فإن اللسانيات علم يهدف إلى اكتشاف القوانين التي تحكم اللغة واستعمالاتها، وينزع إلى البحث عن القوانين التي تحكم لغات العالم جميعها في وقت واحد، وهو من هذه الجهة جديد كل الجدة. والغاية التي يسير إليها هذا العلم باختصار: فهم المنطق الذي يحكم اللغات من أجل ضبط "المعنى" أو الدلالة. وهو هنا يتقاطع مع كل العلوم الإنسانية والعلوم التي تدرس النص، وبالخصوص علم "أصول الفقه" الإسلامي، العلم المتخصص بدراسة النص اللغوي، والعربي منه على وجه الخصوص.

قلنا قبل قليل: إن أول دراسة كانت للمستشرق الياباني "توشهيكو ايزوتسو" Toshihecko Izotso، في كتابه "بنية المصطلحات الأخلاقية

بدأت منذ 1950م، عندما كتب "المستشرق" الياباني توشهيكو ايزوتسو دراسته بعنوان "بنية المصطلحات الأخلاقية في القرآن" باللغة الإنكليزية، وما تزال مستمرة حتى اليوم، ولكن لا بد من الإشارة إلى أن المناهج الغربية الحديثة التي استخدمت لتأويل القرآن كانت تعتمد على اللسانيات بدرجة أولى، وبدرجة ثانية على المنهج التاريخاني. وسأتي على تفصيلهما هنا:

المناهج اللسانية: اللسانيات علم

يدرس اللغة، ويحاول جعل البحث اللغوي معتمداً على التجريب تماماً كالبحث التطبيقي في العلوم الحسية البحتة، وهو على كل حال نشأ في ظروف تمدد المنهجية الوضعية الغربية وبسط نفوذها على العلوم الإنسانية لإخضاعها لمنطق الحس، (بالرغم من مفارقتها له)، ولذلك فإن هذا العلم (اللسانيات) علم يقوم على أرضية فلسفية وابستمولوجية (أصول معرفية)

البحث اللساني على النصوص الدينية. ولذلك (وبالرغم من أن ايزوتسو كان مستشرقاً) خلص إلى تصور لأكثر من 103 مفاهيم عقدية في القرآن تكاد تطابق ما عليه جمهور المسلمين، حتى يبدو أن كاتب هذه الدراسة هو واحد من المسلمين، وعلمنا أن نؤكد على أن ذلك يرجع إلى أن ايزوتسو (ياباني) وليس مسيحياً أوروبياً أو أمريكياً، فهو لذلك لا يحمل عقدة نفسية تجاه المسلمين، وبالتالي استطاع في دراسته أن يكون موضوعاً حيادياً، ومن جهة ثانية درس ايزوتسو اللغة العربية لمدة عامين كاملين في البلاد العربية لهذه الغاية، وحاول تفهم وجهة نظر المسلمين؛ ما سمح له أن يقترب أكثر من الموضوعية.

إن الشيء الأكثر أهمية في دراسة ايزوتسو أنها تثبت أن الدراسة اللسانية للقرآن ليست دوماً ضد القرآن على النحو الذي سنشهد في التطبيقات العربية للسانيات على القرآن!

في القرآن" عام 1950م، وكان (باللغة الإنكليزية) وما يزال، ثم كتب عدد من المستشرقين الفرنسيين (آلارد وآخرين) دراسة طبق فيها علم الدلالة اللساني في كتاب "تحليل مفهومي للقرآن..." عام 1963م. وفي عام 1964م نشر معهد كيوتو للثقافة والدراسات اللسانية في طوكيو دراسة باللغة الإنكليزية للمستشرق الياباني المذكور آنفاً، بعنوان "الله والإنسان في القرآن: علم دلالة التصور القرآني للعالم".

في هذه الفترة كان علم اللسانيات ما زال في طور تبلوره، وخصوصاً علم الدلالة وعلم العلامات السيميائية كانا في البداية. وقد حاول ايزوتسو في دراسته أن يلحظ خصوصية القرآن ولغته التي تشير إلى المصدر الإلهي، والطابع الوضعي للسانيات، ولذلك حاول أن يطوّر النظريات اللسانية لتحليل القرآن الكريم؛ بهدف الكشف عن نظراته الكلية للكون والحياة والإنسان، وبذلك انتبه ايزوتسو إلى أخطر مشكلة تواجه تطبيق

وبالباحثون الغربيون المناهج اللسانية الحديثة لكي يفهموا القرآن بدوافع معرفية وضعية وبدوافع "استعمارية"، أو بدوافع معرفية "موضوعية"، لأنهم يعتقدون أن في هذه العلوم تكمن القدرة السحرية لفهم الحقيقة على نحو لا يفهمها غيرهم فهي سقف المعرفة عندهم، فما الذي يدفع بالباحث العربي والمسلم للاعتماد على تلك المناهج رغم إشكالياتها وصبغتها الوضعية، وتوفر بديل تراثي غاية في الأهمية، أعني (أصول الفقه)؟

إن الجواب بأن ذلك يندرج تحت التقليد العام للغرب فيه نصف الجواب، خصوصاً ونحن نجد مسافة زمنية تفصل بين بداية التجربة العربية والتجربة الغربية تزيد عن عشرين عاماً! الجواب الكامل نجده في الباعث الأيديولوجي (العقيدة) الذي يسوغ هذه الدراسات، والذي غالباً ما يكون ماركسياً أو علمانياً، ويمثل القاسم المشترك بين كل الدراسات

لم يترجم هذا الكتاب إلى العربية، شأن الكتب التي سبقته في هذا المجال وهي ما تزال اليوم على هذا الوضع نفسه، ما يجعلنا نؤكد أن تطبيقات اللسانيات على القرآن المتأخرة التي جاءت بعد عشرين عاماً في العالم العربي كانت تجري دون اطلاع على ما يكتب في الغرب.

وتعتبر دراسة المفكر السوداني محمد أبو القاسم حاج حمد "العالمية الإسلامية الثانية عام 1979م" أول هذه التطبيقات، حيث كانت تلك الفترة بداية لتسرب اللسانيات إلى كل حقول المعرفة الإنسانية، ودخولها العالم العربي. ودشنت دراسة المهندس السوري محمد شحرور "الكتاب والقرآن" عام 1990م مرحلة مهمة لهذا النوع من الدراسات، حيث تحولت "القراءة المعاصرة" للقرآن منذ ذلك الوقت إلى ظاهرة واضحة ومتكررة.

ولنا أن نسأل: إنه إذا كان من المفهوم لنا أن يطبق المستشرقون

وكانها قد حولت القرآن الكريم إلى ما يشبه "حواشٍ ماركسية" كما نشهده في كتاب شحرور.

وهكذا اكتسبت اللسانيات سمعة سيئة جداً في الأوساط العلمية الإسلامية؛ إذ اقترنت مع التوجهات العلمانية والتوليفات الأيديولوجية لدلالات القرآن الكريم. وهنا تبدو المفارقة، فبينما كان الاستشراق ينحو نحو الموضوعية والحيادية باستخدامه للبحث اللساني، كان الدارسون العرب يستخدمونه لتأكيد صحة اعتقاداتهم العلمانية لا لغاية البحث العلمي!

وعلى أن نؤكد هنا، أن سوء استعمال البعض لهذا العلم لا يعني أن هذا العلم برمته سيء، لا يمكننا الاستفادة منه، فالمسلمون يعتقدون -على خلاف المسيحية- أن العلم والقرآن كلاهما من الله تعالى، وبالتالي فهما لا يتصادمان، وسوء الاستخدام وحده هو الذي يجب استنكاره.

المنهج التاريخي: المنهج

التي طبقت البحث اللساني على القرآن الكريم.

لقد كانت المناهج التراثية في التفسير تحول دوماً دون إقامة تأويل مذهبي علماني يستغرق كامل النص، ما جعل التأويلات المذهبية من النوع العلماني التي مورست عليه تبدو نشازاً فاقعاً في النسق القرآني، بحيث قلما تحرر هذه المذهبية دون تعسف في التأويل، وتحميل النص ما لا يحتمل. وهذا ما عزز الطريقة التجزيئية المعروفة، ما جعل أصحاب هذه الاتجاهات العلمانية يجهدون للبحث عن مناهج تسهل لهم تجيير القرآن لاعتقاداتهم، وقد وجدوا في الدراسات اللسانية إمكانات كبيرة تسمح لهم بالقيام بتوليف لكامل النص القرآني بشكل منظم ومتكامل. ولكن ذلك لم يتم أيضاً إلا بنوع من التعسف والتجاوز لإشكاليات عديدة، لكنه في كل الأحوال ليس مفصوحاً بسهولة.

ومن هنا بدت بعض التطبيقات

كان يراد من المنهج التاريخي تأمين انسلاخ جماعي للمسلمين من كتابهم الكريم، من أجل تسليمهم للوضعيّة، والدخول في الحداثة الغربية المادية بحسن نيّة وبسوئها.

لم يُنجز في هذا الإطار كثير، لكننا نشير إلى آخر دراسة عام 1998م بالفرنسية لتلميذة محمد أركون جاكين الشابي في أطروحتها للدكتوراه في جامعة السوربون وكتابها ما يزال بالفرنسية.

ويبقى أن تجربة المناهج الغربية في تأويل القرآن الكريم كانت غالباً فاشلة؛ لكن فشلها لا ينبع دوماً من الإمكانيات المعرفية لتلك المناهج، بل بسبب الخلفيات الاعتقادية التي جعلت من تلك المناهج مجرد أدوات للدعوة إليها، فأساءت كثيراً لها، وحبّبت المسلمين عن الاستفادة منها، ومن الطبيعي ألا يهتمها حجم الخسائر العلمية، فهي مهووسة بعقائدها العلمانية المتطرفة.

وفي المقابل كان تقييم "المناهج

التاريخي الذي يعتبر أن تفسير النص يجب أن يكون مرهوناً بتاريخه، ويجب أن يكون ساكناً هناك لحظة ميلاده، فلا يمكن فصل أي نص عن تاريخه. هذا المنهج يصدر عن نزعة مادية وضعية لا تؤمن بأن الأديان هي من صنع الله تعالى، ويعتبرها إنشاء إنسانياً، وذلك لأن الإنسان يتحكم به التاريخ بشكل كامل، والله مطلق منزّه عن ذلك.

حاول البعض بناءً على مقولة "المنهج التاريخي" إلصاق النص بالتاريخ لتسويق التخلي عنه الآن، وبالرغم من أن محمد أركون المفكر الجزائري كان سابقاً منذ الثمانينيات إلى هذا المنهج، فقد اشتهر به نصر حامد أبو زيد بسبب قضية طلاق زوجته في المحاكم المصرية بتهمة الارتداد عن الدين، بسبب اعتناقه لهذه الفكرة في منتصف التسعينيات. وبينما كان محمد أركون يصدر عن عقيدة علمانية ليبرالية، كان نصر حامد أبو زيد يصدر عن عقيدة ماركسية. وفي كلا الحالتين

والمستمر من استخدام تلك المناهج
في دراسة القرآن الكريم ؛ إذ يُنظر
إليها تلقائياً بأنها رغبة علمانية وليست
علمية!

الغربية" وجدواها في دراسة القرآن
الكريم دائماً غير موضوعي، لأنه كان
يرتبط بالنتائج الكارثية لتلك الدراسات،
وهذا ما يبرر الحساسية والخوف الدائم

